

فقه الواقع (أصول وضوابط) «أحمد بوعود

قبل أن نشرع في تحديد العلاقة بين الدعوة الإسلامية وبين فقه الواقع نرى من اللازم أن نبين مفهوم فقه الواقع، وذلك للغموض الذي يشوبه ولعدم التعرض إلى دلالاته رغم كثرة تداوله في الآونة الأخيرة.

ونشير هنا إلى أن نظرتنا لن تكون شاملة، وكلمتنا لن تكون أخيرة وحاسمة، وإنما هي اجتهاد نريده أن يتطور من طرف ذوي الاختصاصات والكفاءات من أجل وضع قواعد أساسية لهذا الفقه القديم/الجديد(1).

في هذا الفصل، نتكلم عن فقه الواقع: معناه، وتعريفات بعض المفكرين، لنضع من ثم عناصره الأساسية التي ارتأينا أنها تتمثل في: إدراك المؤثرات البيئية الطبيعية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ وفي فقه الحركة الاجتماعية؛ وفي سبر أغوار النفس البشرية.

وبعد أن نبين مفهوم هذا الفقه، دلالاته والمقصود منه، نشرح أهميته وضرورته ومدى الحاجة إليه، وكيف تتعامل معه التيارات الفكرية في العالم الإسلامي.

المبحث الأول : مالمقصود بفقه الواقع؟

«فقه الواقع» مركب إضافي أشبه بالمركبات الإضافية: فقه السيرة، فقه الحديث... والمعاجم لا يمكنها أن تعطينا تعريفاً أو معنى لهذه المركبات لاحتوائها على أكثر من مفردة. ثم إن «فقه الواقع» لم يصبح بعد علماً قائماً مقعداً له كباقي العلوم التي حظيت بتعريفات كأصول الفقه، وأصول الدين وتاريخ الإسلام... من هنا، كان لا بد لهذا المركب الإضافي من أن يمر بمحطتين للحصول على تعريف يفي بالمدلول ويحصل منه المقصود.

1- معنى كلمة «فقه»:

فقه الأمر: أحسن إدراكه.

وتفقه الأمر: تفهمه وتقطنه.

والفقه: الفهم والفتنة... وهو العلم أيضاً(2).

وهو الفقه الذي دعا به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(3). يقول الشيخ يوسف القرضاوي: «أي ينير الله بصيرته، فيتعمق في فهم حقائق الدين وأسراره ومقاصده، ولا يقف عند ألفاظه وظواهره»(4).

2- معنى كلمة «واقع»:

عدت إلى لسان العرب أبحث عن كلمة «واقع» لكن دون جدوى، وقلت في نفسي: إن الكلمة محدثة، وربما أجد بغيتي في المعجم الوسيط باعتباره يجمع بين الكلمات العربية الأصلية وبين المفردات المحدثّة والدخيلة، فلم أجد سوى كلمة «واقعية»، وهي في الفلسفة: مذهب يلتزم فيه التصوير الأمين لمظاهر الطبيعة والحياة كما هي؛ وكذلك عرض الآراء والأحداث والظروف والملابسات دون نظر مثالي؛ أو مذهب أدبي يعتمد على الوقائع، ويعنى بتصوير أحوال المجتمع(5).

ويرى الشيخ القرضاوي أن الواقعية في الإسلام تعني «مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود شاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ووجود أسبق من وجوده، وهو وجود الواجب لذاته، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً»(6)، وهي من خصائص الإسلام.

وتكلم الدكتور النجار عن الواقع، فقال: «المقصود بالواقع... الأفعال الإنسانية التي يراد تنزيل الأحكام عليها وتوجيهها بحسبها»(7). إلا أن هذا التعريف يحصر الواقع في الأفعال الإنسانية.. وقد ذهب إلى الرأي نفسه الدكتور الخادمي، فقال «والواقع ليس إلا مجموع الوقائع الفردية والجماعية، الخاصة والعامة»(8).

وقد وسع الدكتور عبد المجيد النجار من تعريفه في كتاب لاحق، حيث قال: «نعني بالواقع ما تجري عليه حياة الناس، في مجالاتها المختلفة، من أنماط في المعيشة، وما تستقر عليه من عادات وتقاليد وأعراف، وما يستجد فيها من نوازل وأحداث»(9). فالواقع إذن: كل ما يكون حياة الناس في جميع المجالات، بكل مظاهرها وظواهرها وأعراضها وطوارئها.

3- معنى فقه الواقع:

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنه: «فالنزول إلى الميدان وإبصار الواقع الذي عليه الناس، ومعرفة مشكلاتهم ومعاناتهم واستطاعتهم وما يعرض لهم، وما هي النصوص التي تنتزل عليهم في واقعهم، في مرحلة معينة، وما يؤجل من التكاليف لتوفير الاستطاعة، إنما هو فقه الواقع، وفهم الواقع، إلى جانب فقه النص»(10).

فتنزيل النصوص إنما هو ثمرة فقه الواقع وتفاعل النص مع الواقع، أو هو فقه التنزيل، كما سنرى لاحقاً، وإنما يطلق عليه فقه الواقع تجاوزاً.

ويرى الدكتور القرضاوي أن فقه الواقع «مبني على دراسة الواقع المعيش، دراسة دقيقة مستوعبة لكل جوانب الموضوع، معتمدة على أصح المعلومات وأدق البيانات والإحصاءات»(11).

هذا التعريف يجعل من دراسة الواقع أساساً لبناء فقه الواقع، إلا أننا يمكن أن نعتبر فقه الواقع دراسة له.

وعرف الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله فقه الواقع، فقال: «هو الوقوف على ما يهم المسلمين مما يتعلق بشؤونهم أو كيد أعدائهم، لتحذيرهم والنهوض بهم واقعياً لا نظرياً، أو انشغالاً بأفكار الكفار وأنبيائهم... أو إغراقاً بتحليلاتهم وأفكارهم»(12).

فقوله «الوقوف على ما يهم المسلمين» هو كلام على المصالح، والمصالح إنما يحددها فقه الواقع، أو هو نتيجة الدراسة المستفيضة لهذا الواقع.

والذي أراه، من خلال ما سبق من تعريف للفقه وللواقع، أن فقه الواقع يمكن أن يعرف على الشكل التالي: «هو الفهم العميق لما تدور عليه حياة الناس وما يعترضها وما يوجهها».

ولعل غياب الدراسات والكتابات الخاصة في الموضوع هو الذي يجعل هذا الفقه غامضاً في الأذهان، وتعريفاته عائمة وغير دقيقة(13).

المبحث الثاني: العناصر الأساسية لفقه الواقع

قلنا إن فقه الواقع هو الفهم العميق لما تدور عليه حياة الناس وما يعترضها وما يوجهها. وهو مرهون إلى حد بعيد بالوقوف على اكتشاف ما أطلق عليه الأستاذ عمر عبيد حسنه «قوانين الاجتماع والعمران» والإحاطة بالشروط والعوامل الفكرية المؤثرة فيها(14).

من هنا رأينا أن يشمل فقه الواقع :

- إدراك التأثيرات البيئية الطبيعية، باعتبارها محددًا أساسيًا وموجهًا رئيسًا لحياة الناس .
- فقه الحركة الاجتماعية، على اختلاف أنواعها، باعتبارها الروابط التي تربط بين الناس .
- سبر أغوار النفس البشرية، باعتبار الإنسان المحور والأساس في هذا الوجود .
- إدراك التأثيرات البيئية الطبيعية :

ونقصد بالبيئة الطبيعية كل ما يتعلق بالمنطقة التي يعيش فيها الإنسان، من تكوين، وموقع جغرافي، وتضاريس، وما يحيط بها من ظروف طبيعية ومناخية(15).

وقيدنا هذه التسمية بالطبيعية أو الجغرافية تمييزاً لها عن البيئة الاجتماعية أو السياسية ...

وأما البيئة -على الإطلاق- فهي تمثل كل العوامل الخارجية التي لها تأثير مباشر أو غير مباشر على الفرد(16) وعلى مناشط الحياة، بل وتوجه هذه الحياة وفق خصائصها وميزاتها .

وكانت رسالة أبقراط (064ق.م) أول رسالة في علم المناخ تصف طبيعة الأرض والمناخ .

ومن بعد أبقراط، كتب في نفس الموضوع كل من أرسطو وبطليموس وجالينوس(17)، وجاء ابن خلدون وكتب في مقدمته الشهيرة عن أثر الهواء في ألوان البشر وأحوالهم وأخلاقهم ...

ويعد ابن خلدون جاء مونتيسكيو، فكتب في ذلك De L'esprit des lois ، إلا أنه لم يأت بجديد سوى أنه كرر -مع غيره - ما جاء به ابن خلدون .

ويرى ابن خلدون، ومونتيسكيو وغيرهما من علماء الاجتماع، أن البيئة الطبيعية أو الجغرافية هي التي تكسب الجماعات البشرية

خصائصها ومقوماتها الذاتية، إلا أن هناك فريقاً من العلماء يرى أن هذا التقدير مبالغ فيه (18). غير أنه لا أحد من الفريقين ينكر تأثيرات البيئة الطبيعية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية وكذلك السياسية.. وهذا ما سنحاول توضيحه فيما يلي :

أ- التأثيرات البيئية في الحياة الاجتماعية :

تخضع الحياة الاجتماعية إلى حد كبير لتأثيرات البيئة الطبيعية، إذ هي التي تحدد ملامحها وتوجه سيرها وسير الناس عامة . ففي المناطق المعتدلة مثلاً، نجد الناس -كما يرى بعض الباحثين- أعدل الأجسام واللون والديانة... وأقدر على التعقل والتحمل والرزانة وكبت الانفعالات وضبط النفس... كما أن أصحاب المناطق المعتدلة أوفر إدراكاً وقويو التفكير والتحليل والملاحظة . أما في المناطق الحارة فإننا نجد الناس ذوي بنية نحيفة، وجسم صحيح، أقوى الحس والإرادة، وذلك لنمط عيشهم القاسي... كما يغلب عليهم الخمول والكسل، وعلى خلقهم الطيش وكثرة الطرب، حتى إنهم ليوصفون بالحمق واللامبالاة... ويفضلون الزواج المبكر، ونسبة الخصوبة لديهم عالية .

وأما أهل المناطق الباردة فيمتازون بالصبر، والقدرة على مواجهة الظروف القاسية التي تفرضها عليهم منطقتهم بخصائصها... طبعهم بارد وعاطفتهم راكدة.. ونظرًا لانخفاض درجة الحرارة، فإن هؤلاء يلجؤون إلى ممارسة رياضات شاقة لتنشيط الدورة الدموية... وإذا كان أهل المناطق الحارة يفضلون الزواج المبكر، فإن أهل المناطق الباردة يفضلون تأخيرها، ونسبة الخصوبة لديهم منخفضة .

وأهل مصر -يقول ابن خلدون- غلب عليهم الفرح والخفة والغفلة عن العواقب، حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة مآكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة، ترى أهلها مطرقيين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى إن الرجل ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يبرز شيئاً من مدخره(19).

وأهل المناطق الساحلية أو المجاورة لدول أخرى تقاليدهم وعاداتهم مختلفة عن تقاليد وعادات أهل الداخل أقرب إلى الدول المجاورة. ولعل هذا ملموس جداً عندما نقارن بين شمال المغرب وداخله أو جنوبه .

ب- التأثيرات البيئية الطبيعية في الحياة الاقتصادية :

إذا كان للبيئة الطبيعية تأثيراتها في الحياة الاجتماعية، فإن تأثيراتها في الحياة الاقتصادية أشد وأقوى، إذ تختلف هذه الأخيرة تبعاً للمواد الأولية وللجو والموقع .

فحيث تكثر المناجم تكثر الصناعات، وحيث تقل المناجم يندر وجود الصناعة .

وقرب الأنهار والأودية تكثر الزراعة وتنشط، بينما ينتشر الرعي في المروج .

أما في الجبال فالموارد الاقتصادية قليلة لعدم صلاحية الجبال للإنبات من جهة، ولوعورتها من جهة أخرى، فيعم الفقر .

وأما في المناطق الساحلية فتتحرك التجارة وتنشط الصناعة، ويكثر نقل البضائع .

وفي المناطق الحارة تكثر صناعة الدخان، وأقواتهم من الذرة والعشب، بينما يرتكز اقتصاد المناطق الباردة على غزل الصوف

والنسيج لمقتضيات منطقتهم ومتطلباتها .

ج- التأثيرات البيئية الطبيعية في الحياة السياسية :

يحدثنا التاريخ كيف أن الجبال والصحاري كانت دائماً عائقاً أمام المطامع الاستعمارية والنوايا الاستغلالية، وهذا ما يجعل أهل هذه

الأماكن في أمان، عكس أهل السهول والأودية التي تعري بالتوسع والاستعمار، مما يجعلهم تحت تأثير القوى الأجنبية الغاشمة . وليس هذا فقط، بل حتى المناطق التي تمتاز بالخيرات الطبيعية فهي دائماً محط أطماع القوى الكبرى .

وقد سبقت الإشارة إلى أن الكسل والخمول صفة أهل المناطق الحارة، وهذا له تأثيره على الممارسة السياسية والدينية في البلاد .

ويعتقد أن للبيئة دوراً في تلوين الحكم الذي تخضع له أية جماعة بشرية، فقيام الديمقراطية في بلاد اليونان يرجع أسبابه إلى

سلاسل الجبال التي جعلت من البيئة أقساماً صغيرة تستطيع أن تباشر حكم نفسها بنفسها. وحيث تمتد السهول والأودية تقوم نظم

الحكم الملكي والإمبراطوري مثلما كان الحال قديماً في مصر والهند وبلاد فارس(20) إلا أن هذا الرأي يحتاج إلى تمحيص ودلائل .

ويرى ابن خلدون أن النبوات إنما تكون في المناطق الأكثر اعتدالاً، فهو يقول: «ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم، قال الله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } (آل عمران:110) وذلك ليمت القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله»(21).

غير أن عبد الواحد إسماعيل القاضي يرى أن ابن خلدون قد تجاوز الحدود بمقالته هذه، وذلك لسببين : أولهما : أنه يجدد دعوة أرسطو العنصرية، تلك الدعوة التي زعم فيها أرسطو أن تقسيم الناس إلى سادة وعبيد ليس فيه شيء من الظلم أو القسوة، لأنه نظام فطري أرادته الطبيعة وأمرت باتباعه .

ثانيهما: أنه يحصر البعثات الإلهية في سكان المناطق الأكثر اعتدالاً ...

وساق عبد الواحد القاضي مجموعة من الآيات التي تتكلم عن بعثة الرسل(22).

والأمر في نظري على جانب كبير من الصحة، ذلك أن الآيات التي استدلت بها القاضي لا تتناقض ما ذهب إليه ابن خلدون، ذلك أن الآيات التي استدلت بها القاضي لا تتناقض ما ذهب إليه ابن خلدون، ثم إنني وجدت كلاماً للدكتور وهبة الزحيلي في تفسيره قريباً من رأي ابن خلدون، يقول: «الأنبياء من أهل المدن، ولم يبعث الله نبياً من أهل البادية، لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أهل الأمصار والقرى أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن البصري: «لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط، ولا من النساء ولا من الجن .. وقال العلماء: من شرط الرسول: أن يكون رجلاً آدمياً مدنياً: وإنما قالوا: آدمياً تحرراً من قوله: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا } (الجن:6))»(23).

-2- فقه الحركة الاجتماعية :

رأينا فيما سبق كيف تؤثر البيئة الطبيعية على الإنسان وعلى حياته في مجالات الاجتماع والاقتصاد والسياسة.. ونحاول هنا رصد أهم مكونات الحركة الاجتماعية باعتبارها عنصراً مهماً في الواقع، ولا يتحقق فقه الواقع إلا بفقهها .

والحركة الاجتماعية، ومبلغ نشاط الأمة في شتى فروع الحياة، كل ذلك ينعكس على الفرد، ويبطعه بطابعه، ويتجه بقواه الجسمية والعقلية وجهة خاصة، ويؤثر أيما تأثير في إدراكه وعواطفه ونزوعه ومبلغ طموحه ومواجهته لمشكلات الحياة، ويذل الوسائل لرقى مواهبه واتساع مداركه، أو يضع العقبات في هذا السبيل(24).

وأقصد بالحركة الاجتماعية كل العلاقات التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، أيأ كان نوعها: دينية، اقتصادية، سياسية، عائلية، ثقافية ...

والحركة الاجتماعية عامل أساس في نجاح أو فشل دعوة ما، ومحدد رئيس لوضع الكثير من التشريعات أو إلغاء أخرى، وتأجيل ما يمكن تأجيله أو تقرير التدرج في أمور .. وسنبين ذلك من خلال ما يلي :

أولاً : إن الاجتماع الإنساني إنما جعله الله سبحانه وتعالى لعمارة الأرض وعبادته سبحانه، يقول الله عز وجل {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة:30).. وهذا هو السر في جعل الإنسان مكرماً من بين سائر المخلوقات والكائنات يقول تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا } (الإسراء: 07). وهكذا فإن فقه الحركة الاجتماعية ينبغي أن يكون في إطار الهدف العام من خلق الإنسان، والغاية الكبرى من وجوده . والمتأمل في المجتمعات الإسلامية يجد أن سيرها قد انحرف عن هذا الهدف، حتى أصبحت صورتها مشوهة، لا هي إسلامية صرفة، ولا هي غربية، وقد تكون في بعض الأحيان أقرب إلى الغربية منها إلى الإسلامية، ولعل هذا ليس محصوراً في مجال دون آخر .

فالواقع الإسلامي اليوم موروث عن عصور الانحراف والبعث عن شريعة الله عز وجل، لذا فإن فهمه بعيداً عن تاريخه لن يؤتي الثمار المرجوة، وقد يأتي بعكسها .

هذا الانحراف أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم وبالتحولات التي ستطرأ على تاريخ الأمة الإسلامية في مجال السياسة والحكم خاصة، يقول عليه الصلاة والسلام: «لِيُنْقَضَنَّ عَرَى' الإسلام عروة عروة، فكلمة انتَقَضَتْ عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن

نقضًا للحكم، وأخرهِنَّ الصلاة)»25).

وقال صلى الله عليه وسلم: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاصًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريَّة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)»26...).

هذا الحديث الشريف يبين لنا المراحل التي تقطعها الأمة الإسلامية، وتحول الخلافة إلى ملك عاص ثم جبري.. فالمرحلة الأولى وهي مرحلة النبوة، كان النبي صلى الله عليه وسلم الحاكم والإمام.. والمرحلة الثانية، مرحلة الخلافة على منهاج النبوة، مرحلة الخلفاء الراشدين، ساروا على منهاج النبي صلى الله عليه وسلم، أمرنا باقتفاء أثرهم.. وأما المرحلة الثالثة، وهي فترة الملك العاص، انتهت الخلافة وغابت الشورى من ميدان الحكم والسياسة، ومن هنا بدأ الانحراف الذي استمر إلى المرحلة الرابعة، وهي مرحلة الملك الجبري الديكتاتوري، حيث دخلت العلمانية وانفصل الدين عن الدولة، وغيبت الشريعة الإسلامية من جل المجالات وأبدلت بنظم وقوانين غريبة بعيدة عن ملامسة هموم الأمة وآمالها وآلامها». فمن الفقه العميق لما حل بنا من انحطاط أمس البعيد والقريب يبدأ التغيير)»27).

ولكن رغم هذا الانحراف الكبير، فإنه لا زالت في الأمة الإسلامية بقايا الخير والعقيدة الصالحة جنوة كامنة، يقول الدكتور عبد المجيد النجار: «وإذا كانت الحياة الاجتماعية في وجوهها السياسية والاقتصادية والقانونية العامة قد انسحب منها إلى حد كبير العامل الديني، فإن بقية من الإيقاع العام في التعامل الأخلاقي والسلوك الثقافي، بقيت محكومة بهذا العامل، وهو ما يلمسه بوضوح من يقارن بين مجتمع إسلامي ومجتمع غربي، بناء على خبرة علمية ومعايشة فعلية)»28).

ثانيًا: إن فقه الحركة الاجتماعية هو رصد للعلاقات الاجتماعية على مختلف الأصعد التي تضطلع فيها التنشئة الاجتماعية بدور أساس، وذلك لأن المعايير الاجتماعية تتكون من خلال تفاعل الجماعة، حيث يكتسبها الفرد ويتعلمها من خلال التنشئة الاجتماعية)29).

وعرفت التنشئة الاجتماعية بتعاريف عديدة، أورد منها الشيخ محمد كامل عويضة تسعة تعريفات نختار منها :

-التنشئة الاجتماعية عملية تحويل الفرد من كونه كائنًا بيولوجيًا إلى كونه كائنًا اجتماعيًا .

-التنشئة الاجتماعية عملية تعلم اجتماعي يتعلم فيها الفرد عن طريق التفاعل الاجتماعي أدواره الاجتماعية، ويكتسب المعايير الاجتماعية، ويتعلم كيف يتصرف بطريقة ترضى عنها الجماعة .

-وهي إكساب الإنسان صفة الإنسانية .

ولعل التعريف الثاني أوضح وأشمل، إلا أننا نرى تغيير عبارة «ترضى عنها الجماعة» بعبارة «ترضى الله عز وجل»، لأن الجماعة قد تصاب بالانحراف وبالتالي فإن تقويم التنشئة الاجتماعية لن يخضع لمعيار أو مقياس .

وتتحكم في التنشئة الاجتماعية عوامل أربعة: الوراثة، التراث الاجتماعي، الدين، البيئة وقد سبق الكلام عنها .

أ- الوراثة :

لا أحد ينكر ما للوراثة من أثر على الكائن البشري في اكتساب خصائصه ومميزاته وطبائعه وعلاقاته مع غيره، بل «إن العلم أثبت أن العيوب والنقائص التي تخلفها المعاصي تنتقل بفعل قوانين الوراثة إلى البنين والحفدة. ومن ثم لا يكون العبد العاصي مسؤولاً عن معصيته وحسب، بل يكون مسؤولاً عما قد يصيب بنيه وحفدته من عجز وقصور واستعداد للانحراف)»30).

ب- التراث الاجتماعي :

ونقصد بالتراث الاجتماعي ذلك الميراث الذي يرثه الفرد من مجتمعه عبر السنين، بل والقرون أيضًا، ويضم :

-اللغة: وهي مرآة صافية تعكس التاريخ الاجتماعي، فكما تحضرت أمة وتعددت مظاهر حضارتها وسما تفكيرها نهضت لغتها وتنوعت فنونها ودقت مفرداتها وكثرت المصطلحات الفنية فيها، ولذلك نجد أن لغة الأمة التي تنهض فيها الصناعة والزراعة أغزر ثروة من لغة بلد ينهض على الزراعة وحدها. كذلك تتأثر اللغة، بالنظام الطبقي لأن كل طبقة تعبر عن نفسها بأسلوب يختلف عن غيرها(31)، وهذا أمر ملاحظ ومعيش .

-العادات والتقاليد والعرف: وتختلف من مجتمع إلى آخر، ومن تجمع سكني إلى آخر، وهي التي تحفظ للمجتمعات كيانها .
هذه العادات والتقاليد يكتسبها الإنسان تلقائياً في المجتمع دون حاجة إلى مدرسة أو تعليم، إذ هي تسكنه دون أن يشعر، وتصبح
خاصية من خواصه، لذا يشاع: أن «العادة طبيعة ثانية»، ويقولون: «تزول الجبال عن قواعدها ولا تزول الناس عن عوائدها».
وكذلك العرف، فهو بمثابة قانون خفي ينظم المجتمع في علاقاته وفي سيره. وسنعود لهذا في الفصل الثالث .

يقول الدكتور مصطفى الخشاب عن العادات والتقاليد والعرف: «إنها الدعائم الأولى التي قام عليها التراث في كل بيئة اجتماعية،
وهي إلى هذا تعتبر القوى الموجهة لأعمال الأفراد والمؤثرة فيها»(32).

-الثقافة: كان تايلور Tailor أول من قدم تعريفاً للثقافة، وقال: إنها ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعارف والمعتقدات والفن
والقانون والأخلاق والعادات، وأي قدرات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو من المجتمع(33). وباعتبار هذا التعريف فإن ثقافتنا اليوم
-نحن المسلمين- ثقافة بعيدة عن ديننا ومنهاج نبينا صلى الله عليه وسلم، وبالتالي لا يمكن أن تعبر عن هويتنا وأصالتنا، وهكذا
فهي بحاجة إلى تمحيص وتنقية وتنقيح .

ج- الدين :

ويعتبر الضابط الأساس الذي به ينضبط المجتمع، أيًا كان نوعه، وهو ذو سلطة وتأثير أبغ من تأثير العادات والتقاليد والأعراف،
ولا يشبهها .

والدين هو الأصل الذي تستمد منه المعايير الاجتماعية وإليه ترجع، فإن كان هناك خلل في المعايير الاجتماعية فإن هناك بالتأكيد
خللاً في التدين وفي التعامل مع الدين .

-3سبر أغوار النفس البشرية :

إن الإنسان ببشريته هو المحور الذي عليه يدور الواقع، منه يبدأ وإليه ينتهي، ولا يمكن أن نتكلم عن واقع بدون إنسان أو إنسان
بدون واقع، ذلك لعلاقة التحكم بين الطرفين ومن كليهما، فيتكيف الإنسان معه أو يكيفه طبقاً لحاجياته ومقتضيات التشريع بما
وهبه الله عز وجل من استعدادات فطرية تختلف من إنسان إلى آخر، كل حسب طبيعته ومزاجه وخصائصه النفسية. لكن رغم هذا،
هناك ما هو مشترك بين جميع البشر وإن اختلفت نسبته من إنسان إلى آخر، وذلك ما اصطلح على تسميته بـ «طبيعة
الإنسان»(34). وقد حددها الدكتور زويد المطيري في أربع :

أ- الإنسان في أصله مخلوق من طين، ونفخ الله فيه من روحه، قال تعالى: {الذي أحسن كل خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم
جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون }
(السجدة:7-9). وقد بينت هذه الآية ازدواج الطبيعة الإنسانية، فهو من طين الأرض، ومن نفخة الله فيه من روحه، ويعني هذا
وجود نوازع الخير ونوازع الشر في نفسه. هذا، وإن كانت تعتريه نزعات الشجاعة والجبن، فهي غرائز كما أشار إلى ذلك الإمام
الشاطبي رحمه الله(35). (والقلوب جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها .

ب- إن وجود نزعات الخير والشر في الإنسان، يعني وجود شيء آخر، وهو وجود الإرادة الحرة فيه، والقدرة على اتخاذ القرار.
وقدرته على اتخاذ القرار لا تعني بحال من الأحوال أن الإنسان قادر على اقتلاع ما غرز في جبلته، أو تحسين ما قبح من خلقته
في جسمه، أو تكميل ما نقص منها .

ويرى الإمام الشاطبي أن الأوصاف التي لا قدرة للإنسان على جلبها ولا دفعها على ضربين :

-أحدها ما كان نتيجة عمل كالعلم والحب .

-والثاني ما كان فطرياً ولم يكن نتيجة عمل، كالشجاعة والجبن، والحلم والأناة المشهود بها في أشج عبد القيس، وما كان
نحوها(36).

ج- منح الله الإنسان القدرة على التعلم وطلب المعرفة، حيث ميزه بحواسه لتعينه على تكوين خاصية العقل والتفكير التي تمكنه من
العلم وإدراك الحقائق الخارجية، قال تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
لعلكم تشكرون } (النحل: 87).

د- لقد كرم الله الإنسان وفضله على كثير ممن خلق، فقد كرمه بأن خلقه في أحسن تقويم، وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، وبها استأهل الخلافة في الأرض، وكرمه بتسخير القوى الكونية له، وأسجد له ملائكته، وبحلول اللعنة على إبليس الذي أبى واستكبر عن السجود لآدم) 37.

هذا، وخصائص النفس البشرية وحاجياتها تختلف من حالة إلى أخرى، ومن وضع إلى آخر. والإنسان يحاول أن يتكيف مع كل حالة ومع أي وضع بما تختزنه نفسه من طاقات، ويتعامل معها بها، إلا أنه قد يعجز في بعض الأحيان، وقد يفشل في إيجاد تصرف ملائم لأية حالة تعترضه. من هنا، كان ترصد الظاهرة الإنسانية في مختلف أحوالها ترصدًا للواقع الإنساني، وفهمًا له على الوجه الصحيح .

في المنهج :

بعد استعراضنا للعناصر الأساسية في فقه الواقع، يجد القارئ نفسه أمام مركب معقد مسمى الواقع، لا يحل ألغازه إلا علم الاجتماع وعلم النفس وباقي العلوم الإنسانية وغيرها. وهنا نصطدم بمشكل، وهو أن هذه العلوم -كما يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة- إنما نشأت في مناخ التبشير والاستعمار، وجاءت استجابة لحاجات مؤسسات التصدير ومراكز صنع القرار، وأن تطورها فيما بعد، إضافة إلى ذلك، كان لحاجات التجارة والتسويق والتحكم الثقافي) 38.

من هنا، تبرز أهمية صياغة هذه العلوم، صياغة إسلامية، يكون الإيمان بالله عز وجل محورها، ويُنظر إلى الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض .

ولن يحصل هذا الفقه بدراسة الأنظمة والانغلاق في الحجرات على المكاتب والأوراق، ولكن «بالانخراط الفعلي في هذا الواقع، معاشية للناس، وتعاملًا معهم في تصرفات الحياة المختلفة، ووقوفًا على مشاكلهم عن كثب، ومساهمة واقعية في مناشطهم المتنوعة)» 39.

وقد اقترح الدكتور عبد المجيد النجار طريقتين متكاملتين للبحث في واقع المسلمين، نراهما جديرتين بالبحث والتحقيق، هما :
- الأولى: تحليل جملي لواقع المسلمين في خطوطه الكبرى' وعوامله الأساسية، وفي المسار العام لأحداثه، وفي طبيعة تفاعلاته الداخلية والخارجية، ليحصل من ذلك كله شبه الأصول العامة، والقواعد الكلية للتشخيص والفهم، تساعد بعد ذلك على دراسة الأوضاع والظواهر الجزئية .

- والثانية: تحليل جزئي تفصيلي لمجالات الحياة الإسلامية بحسب أنواعها أولاً، كالاقتصاد، والسياسة، والثقافة، ثم بحسب أفرادها ثانيًا، كالظواهر والحوادث المعينة بظروفها الزمانية والمكانية، وينتهي هذا التحليل بالوقوف على مشخصات الظواهر والأحداث في حقيقتها، وأسبابها ومجالاتها التأثيرية، وغير ذلك مما يتعلق بكشف حقيقتها) 40.

المبحث الثالث: لماذا فقه الواقع؟

رأينا أن الإنسان هو المحور الذي عليه يدور الكون والوجود وله سخر، وطلب إليه أن يعبد الله عز وجل خالقه بهذا التسخير، وقد صنع الله عز وجل كل مقومات هذه العبادة ومقتضيات الاستخلاف في هذا الكون، وذلك أنه علم آدم عليه السلام الأسماء كلها لأنها واقعه .

وسنحاول هنا الإجابة عن السؤال: «لماذا فقه الواقع؟» وما هي الضرورة التي تدعو إلى الكلام عنه والبحث فيه؟ هذه الإجابة تكتمل بالكلام أولاً عن أهمية فقه الواقع، ثم بالكلام عن «تطرفين» في التعامل مع هذا الواقع .
ولعل وجود هذين «التطرفين» كان الدافع الأساس إلى الكتابة في هذا الموضوع والبحث فيه .

1- أهمية فقه الواقع :

إذا غفل الإنسان عن واقعه، وأعمى بصره وبصيرته عنه، فإنه لن يعبد الله عز وجل حق عبادته كما أمر، ومن لا يتصفح مع نصوص القرآن وصحيح الحديث حقيقة الواقع المتغير، الذي جعل الله تغييره بلاءً، يعجز عن عبادة الله وعن الاجتهاد) 41.
ويقول الأستاذ عمر عبيد حسنة: «إن دراسة المجتمعات، وفهم واقعها، وتاريخها وثقافتها ومعادلاتها الاجتماعية، هو الذي يوضح لنا كليات وآليات التعامل معها، ومواصفات خطابها، والفقه الذي يمكننا من التدرج في الأخذ بيدها إلى تقويم سلوكها بشرح

إذن، يمكن لفقه الواقع أن يدلنا على منهج الاجتهاد ونوعه المطلوب، كما يفتح لنا باب التجديد، ويضع معالم التغيير، كل هذا طبعاً تحت ضوء المنهاج الشرعي واستمداداً من أصوله .

وسنوضح ذلك من خلال ما يلي :

يعتبر باب الاجتهاد من الأبواب الأساسية الثابتة في كتب أصول فقه المذاهب، على اختلاف أصولها.. وقد تختلف هذه النظرة باختلاف اعتبار الاجتهاد وتعريفاته .

وقد تكلم الأصوليون في باب الاجتهاد عن شروط المجتهد، فكان أغلبها، إن لم نقل كلها، يتكلم عن متعلقات الحكم والنص، ربما بحكم أن المجتهد في تلك العصور كان واحداً من المجتمع المسلم منخرطاً فيه، معاشياً لأمال الناس وآلامهم، فكانت الاجتهادات ضمنياً منبعثة من أعماق الواقع الإنساني... ولكن بعد أن سد باب الاجتهاد وسيطر الجمود، ابتعد المسلمون في واقعهم عن شريعة الإسلام، واستمر الكلام عن الاجتهاد وشروطه بعيداً عما يجب أن يكون، محلقاً في أجواء النظري فقط، وانغلق المسلمون في دائرة النص، وهذا ما زاد في تعميق أزمة الاجتهاد وعقدها .

يقول الأستاذ عمر عبيد حسنه: «من مظاهر أزمة الاجتهاد اليوم أيضاً، أن التركيز في شروط أهلية الاجتهاد انصرف في معظمه إلى معرفة وفقه النص في الكتاب والسنة، أو إلى تحرير النص وبيان صحته، وهذا المطلب أو هذا الفقه لا شك أنه من الأبجديات التي لا تتحقق القراءة والكسب إلا بها، ولا تتوفر المعايير والموازين للأشياء إلا فيها، ولكن هناك جانباً آخر بشكل عام وهو فهم أو فقه محل النص وموطن تنزيله، إلى جانب فقه النص، أي لا بد من فقه النص وفهم الواقع الذي يراد للنص أن يقومه وينزل عليه، وفي هذا لا يكفي حفظ النصوص، بل لعلنا نقول: إن فقه النص لا يتوفر على حقيقته إلا بفهم الواقع»43. (

ويؤكد الدكتور يوسف القرضاوي أن على المجتهد أن يكون ملماً بثقافة عصره، حتى لا يعيش منعزلاً عن المجتمع الذي يعيش فيه ويجتهد له، ويتعامل مع أهله)44. (

بينما يرى الدكتور حسن الترابي أن الاجتهاد اليوم يتوقف على دراسة المجتمع دراسة اجتماعية واقتصادية وبيئية بالاستفادة من علوم الطبيعة، ويقول «ولا يمكن أن نجتهد إلا إذا تعلمنا علوم الطبيعة كما نتعلم الشريعة، ذلك أن علم الطبيعة هو الذي يعرفك بالواقع وأدواته، ومهما حصل لك من العلم الديني بمعالجات الشريعة وبأدوية الشريعة فلا بد لك من تشخيص المجتمع لتعلم الداء، ثم تقدّر ما هو الدواء الشرعي المعين الذي يناسب ذلك المجتمع، وذلك يستدعيك أن تدرس المجتمع دراسة اجتماعية واقتصادية، وأن تدرس البيئة الطبيعية دراسة فيزيائية، حتى تستطيع أن تحقق الدين بأكمله ما تيسر لك»45. (

ويرى الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله أن معرفة الواقع للوصول به إلى الحكم الشرعي واجب مهم من الواجبات التي يجب أن يقوم بها طائفة مختصة من طلاب العلم المسلمين النبهاء، كأبي علم من العلوم الشرعية، أو الاجتماعية، أو... (46) إلا أن الألباني يرى أن هناك اهتماماً مبالغاً فيه من طرف بعض الدعاة والمفكرين بفقه الواقع... معللاً ذلك أن أزمة المسلمين لا ارتباط لها بفقه الواقع .

هنا أقول: إن كان هناك مبالغة وتضخيم لفقه الواقع ودعوة قائمة له، فإن ذلك للحاجة الماسة له لتصحح الحركة الإسلامية مسارها وتوجهاتها، ومواقفها التي غالباً ما تعود بالسلب على الحركة ورجالها. وقد كان الدكتور عبد المجيد النجار مصيب جداً، وكذلك الأستاذ عمر عبيد حسنه وغيرهما عندما أكدوا على أن «افتقار الصحوة الإسلامية إلى فقه منهجي ناضج لتوقيع الدين هو

الذي نراه سبباً مهماً في تأخر إثمارها في مجال التطبيق»47. (

ولا يرتبط فقه الواقع بالاجتهاد فقط، وإنما يرتبط بالتجديد أيضاً .

وفرق بين الاجتهاد والتجديد، لأن الأول يطلق في مجال الأحكام الشرعية وتطبيق النص، وأما الثاني فمدلوله أوسع وشامل لكل قضايا الفكر والثقافة والدين والمجتمع ...

والتجديد -كما يرى الدكتور زكي الميلاد- على وجهين :

داخلي وخارجي، فالداخلي يجدد الفكر نفسه مما علق به من شوائب ليستعيد حيويته، والخارجي يجدد فيه الواقع إصلاحاً

وتطويراً)48. (

وتجديد الواقع لن يكون دون فهم الواقع واستيعابه، إلا أن هذا التجديد للواقع لن يكون مجروراً بالواقع محكوماً به، كما ذهب إلى ذلك الدكتور حسن حنفي (وغيره) عندما أعلن أن التجديد هو إعادة تفسير التراث طبقاً لحاجات العصر . والحركة الإسلامية اليوم مطالبة بالاجتهاد والتجديد، وكذلك التغيير لهذا الواقع في مظاهره المنحرفة والفاصلة.. ومن حماقة تغيير الواقع دون فهمه والإحاطة بمكوناته ومؤثراته. يقول الأستاذ عمر عبيد حسنه: «والتغيير لا بد له من إدراك المراد الإلهي أولاً ومن ثم آليات فهم المجتمع بالمستوى نفسه، حتى يتم الإنجاز»(49). وبذلك يجعل فقه الواقع في مستوى فقه النص والحكم، لا يقل عنه مرتبة .

ويرى الأستاذ محمد بن جبرة أن مدى نجاح أي حركة تغيير في مقولاتها ومنهجها، يرتبط أشد الارتباط بمدى فهم العاملين فيها للواقع المراد تغييره، ذلك لأن التغيير يبتدىء بنقد الواقع نقداً يفرض على الحكم عليه كلياً أو جزئياً بالبطلان، وينتهي بإحلال صور أخرى محلها، فهو بهذا المعنى ينزل منزل السبب بالنسبة للعمل التغييرية، ولا بد لفهم المسبب من فهم عميق للسبب(50). وطبعاً إذا غفلت الحركة التغييرية عن الواقع في عملها فإن مصيرها أحد ثلاثة: التأخر، أو الفشل، أو الاندثار.. يقول الأستاذ عبد السلام ياسين: «من لا يعرف واقع المسلمين ومنابع الفتنة في تاريخهم، وحاضرهم في العالم وحضورهم، وطبيعة الصراع الدائر بين الإسلام والصليبية اليهودية، لا يستطيع أن ينزل شرع الله على واقع يستعصي... وتشتد وطأة البلاء فتكون «لا يجوز» تعبيراً عن الرفض، وتغيب ضرورة الصبر والتدرج»(51).

إن الجهل بالواقع والغفلة عنه يؤدي إلى أن يسود الجمود والتحجر والانغلاق، وأن تغيب سعة الإسلام ورحمته، وتندثر مقاصده، ومن ثم تلغى شريعة الله عز وجل من جميع المجالات، وخاصة في ظل حكم الجبر !!
-2بين تطرفين :

بعد منتصف القرن الرابع الهجري سُدَّ باب الاجتهاد، ليس في مجال الفقه والأصول فحسب، وإنما في جميع ميادين الفكر الإسلامي، وساد التقليد وغلب الجمود على الحياة الإسلامية.. ولعله من المعقول الآن القول: إن جمود الاجتهاد أدى إلى جمود الحياة الإسلامية، وعوضت الأحكام والقوانين الإسلامية بغيرها من القوانين الغربية . وهكذا أصبح يتجاذب الأمة الإسلامية طرفان :

-طرف ينادي بالتشبث بالتراث الإسلامي بتفسيراته وتحليلاته ومشخصاته كما هي، ويدعو إلى الكتاب والسنة، دون أن يضع منهجاً للفهم والتعامل معهما ومع التراث الإسلامي.. ويرى أن الخلل ليس في ميراث المسلمين وإنما في التابعين .وهذا الطرف أدى به اختياره إلى الحرفية والسكون، وإلى منهج التكفير والتبذير والتحريم، وتضييق حدود الشرع .

-وطرف ينادي بتجديد التراث الإسلامي (وضمنه الوحي) باعتباره جامداً لا يحقق نهضة وتقدماً في مستوى تقدم الغرب.. فهذا الطرف، وهو المنبهر بالغرب أدى به اختياره إلى العلمانية واللائكية، وهي طامة لم تعرفها القرون السابقة .
وسنعرض لوجهة نظر الطرفين المتطرفين :

أ- التطرف الأول :

أشرنا فيما سبق إلى أن الطرف الأول تطرف في اعتبار حرفية النص الديني دون الواقع... والغريب أن هناك من ظن أنه كتب عن فقه الواقع دون أن يتطرق حقيقة إلى فقه الواقع، حيث رأى أن فقه الواقع هو مجرد حفظ أو معرفة نصوص الكتاب والسنة(52)!!.

وقد أرجع كثير من رواد الحركة الإسلامية ومفكريها سبب تأخرها إلى قصورها في اعتبار الواقع وإغفالها له، يؤكد هذا الدكتور النجار حيث يقول: «ولكن أكثر ما كان يأتيها من فشل في النتائج، أو من ضمور فيها، كان يأتيها من قصور في تمثل الواقع الإنساني، الذي تهدف إلى إصلاحه، وفي امتلاك تصور عميق لطبيعته، ولعناصر تكوينه، وعوامل تفاعلاته»(53)، وذلك أن الحركة الإسلامية تعاملت مع واقعها المعقد، الطاغية فيه حضارة الغرب، بميراث فقهي وفكري صيغت منه أحكام لقضايا كانت تلح

على الأسلاف .

ويقول الدكتور الترابي: «وقد بان لها (أي الحركة الإسلامية) الفقه الذي بين يديها، مهما تفنن حملته بالاستنتاجات والاستخراجات، ومهما دققوا في الأنابيش والمراجعات، لن يكون كافيًا لحاجات الدعوة وتطلع المخاطبين بها، ذلك أن قطاعات واسعة من الحياة قد نشأت من جراء التطور المادي، وهي تطرح قضايا جديدة تمامًا في طبيعتها، لم يتطرق إليها الفقه التقليدي، لأن علاقات الحياة الاجتماعية وأوضاعها تبدلت تمامًا، ولم تعد بعض صور الأحكام التي كانت تمثل الحق في معيار الدين منذ ألف عام تحقق مقتضى الدين اليوم، ولا توافي المقاصد التي يتوخاها، ولأن الإمكانيات قد تبدلت وأسباب الحياة قد تطورت، والنتائج التي تترتب عن إضفاء حكم معين بصورته السالفة قد انقلبت انقلابًا تامًا» (54).

وقد سبق للدكتور الترابي أن أوضح هذا في حوار له مع الأستاذ عمر عبيد حسنه، عندما كان يتكلم عن تجربة الحركة الإسلامية في السودان، حيث قال «...»: «وهناك أمر آخر أيضًا، وهو أننا لم ندخل عنصر الواقع إدخالًا تامًا في تقديراتنا، وليس الدين إلا محاولة للتوحيد بين الأنموذج الشرعي المثالي وبين البيئة المادية والاجتماعية الواقعة، ولا يتم فقه الدين وعلمه إلا إذا تكامل علم الشرع المنقول بعلم الواقع الاجتماعي، محليًا أو دوليًا، ماديًا كان أو اجتماعيًا، لأن حركة التدين تتأثر صيغتها النهائية بهذا الواقع الذي هو الإطار الذي ينصبه الله سبحانه وتعالى ابتلاءً للعبد» (55).

وتكلم الأستاذ كمال الحيدري (أستاذ الفلسفة الإسلامية في الحوزة العلمية بقم) عن تجربة التغيير في إيران، فقال: «أما عندما جئنا إلى الحكم الإسلامي وواجهنا مشاكل يجب أن نجيب عليها، وجدنا ذلك الفقه الموجود بين أيدينا، لا أقول لا يستطيع مطلقًا، لكنه في كثير من الموارد لا يستطيع الإجابة على هذه المسائل» (56) (لأنه صيغ في ظروف محددة ولمتطلبات معينة . وفي ندوة نظمها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، قال الدكتور محمد زقزوق: «إن الحزب الإسلامي في إنجلترا وضع من أول أهدافه تطبيق الشريعة الإسلامية في إنجلترا!» وعلق على هذا قائلاً: «هذا تعامل مع وهم، وليس تعاملًا مع واقع على الإطلاق» (57).

نعم، من يقرأ هذا الخبر بشدة الحماس تسري في عروقه دماء إسلامية جديدة مبعثها العزة لدين الله عز وجل، فرحًا بتطبيق شرع الله عز وجل في بلاد الكفر، ولكن إذا تأمل لحظة وطرح على نفسه السؤال التالي: لماذا لم يطبق شرع الله عز وجل في بلاد الإسلام منذ زمان؟ وبأي وجه سيطبق في بلاد الكفر...؟ فإنه يدرك أن هذا الهدف لم يسطر في الأرض، وإنما سطر في الفضاء !

يقول الشيخ القرضاوي عن أمثال هؤلاء «رأينا فقهاء الأوراق يقاتلون على أشياء يمكن التسامح فيها، أو الاختلاف عليها، أو تأجيلها إلى حين، ويغفلون قضايا حيوية مصيرية، تتعلق بالوجود الإسلامي كله، وهؤلاء قوم قد لا ينقصهم الفقه، ولئن جاز تسميتهم (علماء) فلا يجوز تسميتهم (فقهاء) لو كانوا يعلمون» (58).

ب- التطرف الثاني :

أشرنا فيما سبق إلى أن التطرف الثاني دعا إلى تجديد كل قديم بما يناسب العصر، كما أشرنا إلى أن التجديد عند حسن حنفي هو إعادة تفسير التراث طبقًا لحاجات العصر... (59)

وذلك بدعوى أن العصر تغير، وبالتالي ينبغي الاختيار والوجهة، يقول: «فخطونا نحن أننا نأخذ نفس الاختيار بالرغم من تغير حاجات العصر» (60).

ويرى هذا الطرف أنه مع تغير الأنماط الحضارية واللحظات التاريخية يتغير كل شيء، حتى القيم، فهي تغيرت وتبدلت عندما انتقل التاريخ بالإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، وهي قابلة، بل يجب أن تتغير مع التغير الحضاري والتكنولوجي .

يقول الدكتور محمد النويهي: «الحقيقة التي يشهد لها التاريخ هي أن القيم الأخلاقية ليست قوالب ثابتة لا يطرأ عليها التغيير، بل هي في تطور دائم وتبدل مستمر، وسر هذا أنها ليست اعتبارات نظرية بل هي أمور حيوية جدًا، متصلة أشد الاتصال بضرورات المجتمع وظروفه، مرتبطة بنظمه السياسية، وأحواله المادية، وأوضاعه الاقتصادية وطرق تحصيله للرزق، فهي تتغير -أو ينبغي أن تتغير- كلما تغيرت هذه الظروف واختلفت هذه الضرورات» (61).

ويعيب الدكتور النويهي على أصحاب الاختيار القديم اختيارهم رغم ما يجلب عليهم من أضرار، وخسائر مادية، فالوضع الآن تغير، والأوضاع السابقة لم تعد ملائمة للوضع الجديد، فهذه الحقيقة -في نظره- لا يدركها أو لا يسلم بها كثيرون من أعضاء المجتمع، «فهم يصرون على الاحتفاظ بقيم كانت مناسبة لأحوال وأوضاع ماضية، وربما لم تعد صالحة للظروف الجديدة، وهم في هذا الإصرار يتخذون مواقف عاطفية مشحونة تجعل من العسير مناقشتهم، فهم يسخطون أقوى السخط على من يدعوهم إلى تغيير قيمهم ويظنون به أسوأ الظنون» (62).

ويستغرب كيف أن هؤلاء يلتمسون لوجهات نظرهم تبريرات دينية، ويردون كل جديد لمخالفته الدين! يقول: «ولا تزال وجهة النظر الأولى التي ينظرون بها إلى كل رأي جديد يعلن عليهم، أو مذهب جديد يدعون إليه، هي وجهة النظر الدينية، هم لا يسألون: هل هذا الرأي في ذاته صحيح أو خاطئ، وهل هذا المذهب في ذاته نافع أو ضار، بل يسألون أولاً: أهو مطابق للدين أم مخالف له؟» (63).

وهذا ما يؤيده حسن حنفي بقوله «الواقع له ألية على كل نص»، ويستشهد بالقاعدة الشرعية: «لا ضرر ولا ضرار» (64). وقد تبنى الفرنسي المسلم روجيه جارودي هذا الموقف في كتابه «الإسلام»، حين أعلن أن «القانون الإلهي، الشريعة، يوحد المؤمنين كلهم، في حين أن الزعم بفرض تشريع القرن السابع الميلادي وللجزيرة العربية، على الناس جميعهم في القرن العشرين، إنما هو عمل يعطي صورة مزيفة، رافضة، للقرآن الكريم، إنها جريمة ضد الإسلام» (65). وفي نظر جارودي أن القرآن الكريم والسنة لم يشرا في المطلق، «إنهما أدليا بإجابات إلهية. ولكنها دائماً تاريخية، ومشخصة عن مشكلات مجتمع أقل تعقيداً من مجتمعنا» (66).

وهذه ليست حجة جارودي وحده، بل هي أيضاً حجة كل من الدكتور النويهي والدكتور حسن حنفي . فالنويهي يرى أن كل التشريعات التي تخص أمور المعاش الدنيوي والعلاقات الاجتماعية بين الناس، والتي يحتويها القرآن والسنة، دعك من سائر مراجع التشريع الإسلامي، لم يقصد لها الدوام وعدم التغير، ولم تكن إلا حلولاً مؤقتة احتاج لها المسلمون الأوائل وكانت صالحة وكافية لزمانهم وبيئتهم، فليست بالضرورة ملزمة لنا، ومن حقنا، بل من واجبنا، أن ندخل عليها من الإضافات والحذف والتعديل والتغيير ما نعتقد أن تغير الأحوال يستلزمه، وما نعتقد أنه الآن أكفل بتحقيق الغايات الإسلامية العليا) (67). ويرى حنفي أن «ما عبر عنه القدماء باسم -أسباب النزول- لهو في الحقيقة أسبقية الواقع على الفكر ومناداته له، كما أن ما عبر عنه القدماء باسم -الناسخ والمنسوخ- ليبدل على أن الفكر يتحدد طبقاً لقدرات الواقع وبناء على متطلباته، إن تراخي الواقع تراخي الفكر، وإن اشتد الواقع اشتد الفكر» (68).

ويستشهد هذا الطرف لأرائه باجتهادات بعض الصحابة رضوان الله عليهم التي رأوا أنها تعارض بعض النصوص الصريحة، يقول النويهي «حتى تلك الأحكام القرآنية التي كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ملزمة، جرؤ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب على أن يوقف تطبيق بعضها أو يلغيه إلغاء تاماً، حين رأى أن تغير الأحوال في عصره لا يجعلها صالحة للتطبيق، ولا يجعلها مؤدية إلى تحقيق الغايات السامية التي نصبها القرآن» (69).

ويسعى هذا الطرف إلى الإقناع بأن الأحكام والقيم تتغير بتغير الظروف والأحوال والمصالح، والواقع هو الذي ينبغي أن يقود المبادئ والقيم والأحكام فتكيف طبقاً له أو تبدل بما يناسبه. ولا يهم هذا الطرف -كما رأينا- الوجهة الدينية، فالأزمة هنا تغليب الواقع على النص والحكم والشرع. وأحب هنا أن أورد بعض الملاحظات :

-إن رواد التغيير ومنظريه، يرون أن التغيير لا يكون في المثال، بل يكون فيما هو مخالف له، وبالتالي لا ينبغي أن يكون همنا مقاومة كل خلق أو قيمة بحجة العصر والظروف.. ثم لا يمكن أن يكون التغيير محكوماً بواقع الفساد والانحراف ومنقاداً له .

-يستشهد هذا الطرف -كما أشرنا- باجتهادات بعض الصحابة رضي الله عنهم، خاصة عمر بن الخطاب. والحق أن ما فعله عمر رضي الله عنه «لم يكن في الواقع ناشئاً من تطور الأمة إلى حالة تستدعي وضع أحكام جديدة تلغي النصوص وتحل محلها، بل نشأ من عدم تحقق شروط العمل بتلك النصوص، أو هو من قبيل استثناء جزئيات من النص العام لمصلحة -

شرعية- عارضة) «70» .

-يرى هؤلاء أن أسباب النزول دليل على أسبقية الواقع على الفكر .. ونقول: إن ما عرف بأسباب النزول إنما يدلنا على إجابات الوحي عن أسئلة الواقع وقضاياها، يرشدها ويقومها، ولا يدل على أن الوحي في فترة نزوله كان يساير الواقع ويتكيف وفقه أو يخضع له .

ثم إن أسباب النزول -وكما هو واضح عند علمائنا- منهج الوحي في تعليمنا، ولا تدل أبدًا على أن النص أو الحكم المنزل خاص بسببه وواقعه، وإنما اقتضت رحمة الله عز وجل أن يكون هناك سبب لنزول الوحي، حتى نتعلم ونفهم أوامر الشرع ونواهيها، ونطبقها كما أراد لها سبحانه وتعالى .

-أما الزعم بأن كثيرًا من «الأخلاق» تغير بمجيء الإسلام، فإنما تغير من السلب إلى الإيجاب، من الظلم إلى العدل، من الشر إلى الخير، من ظلم الجاهلية إلى نور الإسلام، في حين أن الأخلاق المراد تغييرها اليوم إنما هي من أجل جلب المصالح المادية، وبهذا -حسب زعمهم- يصبح الربا حلالاً، والزنا مشروعاً، والسرقه حقاً، وهلم جرا .

-يعيب الدكتور النويهي على الرافضين للجديد أنهم يتخذون مواقف عاطفية مشحونة تجعل من العسير مناقشتهم.. وهذا الحكم فيه كثير من التجاوز والمجازفة والتعميم ومحاولة الخروج عن النصوص الشرعية باسم العلمية والموضوعية .

وهذا الطرف لا يدرك دور الإيمان في التغيير والتجديد، إذ قضايا التغيير في نظره تحتاج إلى علم دون دين، وإلى واقعية دون إيمانية مسبقة) «71» .

-وقد يحاول من نرى أنه يمثل الاتجاه العلماني في الأمة باستمرار التأكيد على أسبقية الواقع للنص أو «الفكر»، حسب اصطلاحهم، في محاولة لإبعاد الدين وإقصائه كلية، وتنصيب العقل مشرعاً .

ويحاول حسن حنفي أن يدافع عن العلمانية ويعتبرها استرداداً لحرية الإنسان في السلوك والتعبير، وحرية في الفهم والإدراك، ورفضه لكل أشكال الوصاية عليه، ولأي سلطة فوقه إلا سلطة العقل والضمير... ويؤكد بأن العلمانية في تراثنا وواقعنا هي الأساس، واتهامها باللايدينية تبعية لفكر غريب، وتراث مغاير، وحضارة أخرى) «72» .

-اعتمد هذا الطرف على أسس ثلاثة :

أولها: المهم في فهم النصوص ما يحقق مقاصد الوحي، ولذلك ينبغي أن يكون الفهم مرتبطاً مباشرة بالمقصد .

ثانيها: اختصاص النص بظروف نزوله وأسبابه، مما يتيح أن يكون معناه محدوداً بزمن تلك الظروف والأسباب .

ثالثها: سلطان الواقع على العقل في فهم النصوص القطعية. فهذا الواقع الذي يعبر عنه غالباً «بروح العصر»، وما ساد فيه من أوضاع و«قيم» جديدة، ينبغي أن يكون محددًا لأوجه الفهم في تلك النصوص، وهو ما لخصه حسن حنفي في قوله «لا سلطان إلا للعقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع) «73» .

وقد أحسن الأستاذ عمر عبيد حسنه حين قال: «وقد تكون مشكلة الحضارة اليوم أن الذين أدركوا آليات فهم الواقع لم يؤمنوا

بالخطاب الإلهي، وكثير من الذين آمنوا بالخطاب الإلهي لم يدركوا آليات فهم الواقع) «74» .